

**(( منهجية علم الانسان الاجتماعي ))**

دكتور : صبحي فنوص

## منهجية علم الانسان الاجتماعي

دكتور : صبحي قنوص

بالرغم من تقدم كثير من المجتمعات ماديا وثقافيا الا اننا نجد كثيرا من مفكري علم الانسان الاجتماعي ( الاثروبولوجيا الاجتماعية ) Social Anthropology كان ولا يزال اهتمامهم منصبا على دراسته الكل الوظيفي للمجتمع<sup>(1)</sup> . وهذا الاهتمام كان مرجعه الى أن الدراسات الميدانية المبكرة كانت مركزة على دراسة المجتمعات البدائية قليلة الحجم من الناحية السكانية ومحدودة الثقافة والتي اتصفت بالشمولية في أبنيتها وأنظمتها الاجتماعية . وقد رأى بعض من مفكري علم الانسان وعلى رأسهم رادكلف براون Radcliffe - Brown أنه يجب على المشتغل بعلم الانسان الاجتماعي أن يدرس المجتمع من خلال مقارنته بمجتمع آخر وخاصة فيما يتعلق بدراسة الوقائع والاحداث الموجودة في المجتمع الخاضع للدراسة . إلا أن وجهة النظر هذه التي أكد عليها رادكلف براون لا تفيدنا في شيء لأنه لا يوجد تشابه وظيفي في مثل هذه الوقائع ، حيث ان ما يعتبره الباحث الميداني حدثا أو واقعة أو نسقا بالنسبة للمجتمع الذي يقوم بدراسته قد يراه باحث ميداني آخر عبارة عن مجموعة من التصورات أو ايدولوجيات معينة ، ولهذا فانه يصعب مقارنة هذه الوقائع حتى وان كانت موجودة في بعض المجتمعات حيث إن درجة وجودها تتفاوت نظرا لتفاوت وتباين درجات حدوثها ورسوخها في كثير من المجتمعات حتى ولو كانت بدائية ، ولا يمكن بأي حال من الاحوال دراستها كأشياء .

(1) هذا الانجاد كار نتيجة لآراء ونظريات رادكلف براون وروبرت ميرتون النظرية .

وبما أن المجتمعات لا تعتبر أشياء بالمفهوم المادي ، فإنه لا يمكن دراستها على هذا الأساس ، فمفهوم المجتمع مفهوماً عقلياً فكرياً وليس مادي حتى ولو تغلبت عليه صفة الصناعية في بنيتها ، وإن الشيء أو الكيان الوحيد الذي نحدده في أي موقف اجتماعي هو أفراد المجتمع . وإن ما نشير إليه عند استعمالنا لمفهوم المجتمع هو أن أفراد المجتمع متصلون ببعضهم إن لم يكن هذا الاتصال قرابياً Kin Relations ، فهم مرتبطون بطريق مختلف الأنظمة الموجودة في المجتمع ، سواء بطريق النظام الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو الديني ، وإن وظيفة عالم الإنسان الاجتماعي وعالم الاجتماع هي محاولة التعرف وتفسير هذه الأنظمة والانسان الاجتماعية المندرجة تحتها . فالمجتمع إذن عبارة عن شبكة من العلاقات الاجتماعية المتداخلة التي هي مجال علم الإنسان الاجتماعي .

إنه لمن الخطأ استعمال مفهوم الكل الوظيفي ، أو الكل الاجتماعي للتدليل به على الواقعة الاجتماعية التي قد تظهر لدى فئة من فئات سكان المجتمع . فالكل الاجتماعي هو مجموعة أفراد المجتمع الذين تربطهم أهداف وغايات معينة ، سواء كانت هذه الأهداف والغايات سياسية ، اقتصادية ، أو اجتماعية . فإذا ارتبط واتفق مجموع أفراد المجتمع من أجل تحقيق هدف معين ، يمكننا أن نعتبر أن شيئاً أو واقعا اجتماعياً قد حدث بالنسبة لأفراد ذلك المجتمع (٢) . ولكن بالرغم من حدوث عملية

---

(٢) إن خير دليل على هذا ما يجري الآن بين أفراد المجتمع العربي الليبي لتحقيق أهداف وغايات معينة سواء كانت على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي . فإذا تحقق ما يسعى إليه المجتمع الليبي الآن يمكننا أن نقول : إن واقعا اجتماعياً قد حدث بالنسبة له ، أو أنه بعين واقعا اجتماعياً ، وصل إليه عن طريق التحام أفراد من أجل تحقيق أهداف معينة ، أو واقع اجتماعي معين ، شريطة ألا ترفض أي فئة من فئاته السكانية هذا الهدف الذي نسميه الواقع الاجتماعي .

توافق بين أفراد المجتمع ، وبالرغم من أن شيئا ما قد تحقق ، إلا أنه لا يمكن للمتخصصين في العلوم الاجتماعية أن يدرسوا ذلك المجتمع ككل .  
فإن ما يحدث في جزء من البناء الاجتماعي Social Structure يختلف جذريا عن حدوثه في بقية الأجزاء ، وحيث إن درجة الحدوث تتفاوت إلا أن منطلقها قد يكون واحدا ، ولكن أهدافها تختلف وذلك حسب الإطار الذي حدث فيه الهدف سواء كان سياسيا ، اقتصاديا ، أو اجتماعيا . فإذا أخذنا مفهوم التحضير مثلًا Urbanism نجد أن جوانبه المعنوية والمادية تتفاوت ، حيث إن ما يحدث من تحضر أو تقدم في الجانب المادي لا يعني نفس درجة الحدوث في الجانب المعنوي فأحدهما بطبيعة الحال أسبق من الآخر ، وعادة ما يكون الجانب المادي كما هو ملاحظ في مجتمعنا العربي الليبي ودول العالم الثالث . وتجدر الإشارة هنا إلى فقدان التخصصية بالنسبة للباحث الاجتماعي سواء كان في مجال علم الإنسان الاجتماعي أو علم الاجتماع . فبالرغم من تعدد فروع العليين إلا أن جميعها ما زالت تدور في حلقة مفرغة ، حيث إن ما يدرسه المتخصص في فرع من هذه الفروع نراه متكررا بالنسبة لبقية المتخصصين في الفروع الأخرى ، وإن تعدد هذه الفروع ما هو إلا تدليل على تطور العلوم الإنسانية ولكن من وجهة نظرية بحثية ، حيث إن الواقع عكس ذلك تماما . إن الهوية لا زالت كبيرة ، وتغطيها أو التخلص منها لا يمكن أن يزول إلا بزوال العمومية المستحوذة على علماء الاجتماع وعلم الإنسان الاجتماعي وخاصة في دول أفريقيا وآسيا . فإذا طبقت التخصصية يمكننا بعدها أن نقول أو نثبت لكل فرع من هذه الفروع أو لكل متخصص فيها درجته ومكانته وفائدته العلمية .

إن المجتمعات الإنسانية حتى ولو افترضنا أنها عبارة عن كل مجرد ، فإنه يتعذر على الباحث أن يدرسها ككل واحد ، وعليه سواء كانت دراسته وصفية أو تحليلية أن يركز على أحد الجوانب المتصلة بالبناء الاجتماعي كأن يقصر دراسته على الانظمة الاجتماعية أو الاقتصادية أو

السياسية . إن عملية التحديد والاختيار هي التي تجعل المنظم الذي اختاره المتخصص لدراسة والبحث فيه كيانا متكاملًا ، فإذا حدد المتخصص مجال بحثه يمكننا أن نقول : انه توصل الى مفهوم الكلي بطريق الجزء . وهذا لا يتأتى إلا بطريق عملية التحديد والتخصيص . فالدارس يستطيع أن يدرس نظاما اجتماعيا أو اقتصاديا متكاملًا ، ولكن لا يسكنه أن يدرس بناء اجتماعيا بكامله أو سعي آخر مجتمعا من المجتمعات بكامله . ان ما يقوم به عالم الانسان الاجتماعي هو تجريد جوانب محددة من السلوك الاجتماعي المتسفة وذلك بقصد التوصل الى العوامل والمؤثرات التي تجعل لهذه الجوانب من السلوك الاجتماعي شكلا منمويا يتفق أغلب أفراد المجتمع في تطبيقها والتقيدها ، ومقارنة هذه الاشكال المنسوخة من السلوك الاجتماعي بما لديهم من افتراضات أو نظريات معينة . وهذه هي أحدث الطرق العلمية والمنهجية المتبعة الآن في تحديد الانظمة الاجتماعية ومن الامثلة على ذلك دراسة العلاقات القرابية وأثرها على نظم الزواج والقواعد المتبعة التي يطبقها سكان منطقة ما ( سواء كانت منطقة حضرية أو ريفية ) من ذلك المجتمع . فليس من السهل أن يقوم عالم الانسان الاجتماعي بدراسة أثر العلاقات القرابية على نظم الزواج في المجتمع الواحد ، لان هذا المجتمع بالرغم من أنه يدين بدين واحد ، ويتحدث لغة واحدة ، فلا يسكن لاي متخصص في علم الانسان الاجتماعي أن ينكر أن سكان منطقة ما يختلفون عن سكان المنطقة الأخرى وذلك فيما يتعلق بنظم الزواج وما يندرج تحتها من العادات والتقاليد المتبعة في ذلك (٣) . فاذا أخذنا مثلا منطقة كمنطقة طرابلس وقارناها بمنطقة بنغازي ، فنلاحظ أن هناك اختلافا - ان لم يكن كبيرا - من حيث الشروط التي يجب أن يوفرها أهل الزوج ، أو الزوج نفسه

E. L. Peters, Aspects of Affinity in a Lebanese Maronite (٣)  
Village, 1975 ; PP. 50 — 53 .

والكيفية التي تساق بها لاهل الزوجة ، ومن هو صاحب الكلمة الاخيرة في الموافقة على زواج الفتاة ، هل هو الاب ، أم العم ، أم الخال ، أم هم جميعهم . وهذا راجع بطبيعة الحال الى نوع التركيبة الاجتماعية والايكولوجية لسكان منطقة طرابلس وبنغازي . ولا يقف الاختلاف عند هذا الحد ، بل ان ما يجري داخل الحدود الادارية لمنطقة طرابلس أو بنغازي يختلف عما هو موجود في الارياف لكلا المنطقتين .

ان مهبة علم الانسان الاجتماعي هو التركيز على دراسة العلاقات الاجتماعية المتسقة وكيفية تنظيمها بين أفراد المجتمع المدروس . وهذا لا يعني أن دراسة هذا النوع من العلاقات الاجتماعية أنها تمثل أو تنطبق على جميع سكان ذلك المجتمع ، ولا يسكن بأي حال من الاحوال اعتبارها كلا واحدا . إن المقصود بالعلاقات الاجتماعية المتسقة أو المنسوجة Institutionalized هي العلاقات المألوفة والثابتة بين أفراد المجتمع وتعتبر خاصة من خواصه . وبالرغم من نمطية العلاقات الاجتماعية الا أن بعضها تختلف عن الاخرى من حيث درجة النمطية نفسها ، فهناك العلاقات الاجتماعية الاكثر نمطية من الاخرى ، وهناك العلاقات الاجتماعية القابلة للتغير والتعديل والتي تتأثر بادخال أي جديد عليها ، حسبما تتطلبه الظروف الحياتية اليومية والتي قد يحددها في أغلب الاحيان العامل الاقتصادي والعامل السياسي ، وهناك من العلاقات الاجتماعية التي تقاوم التغير كنوع العلاقات السائدة في الارياف ، حتى وان تأثرت بأي جديد ، فان درجة تغيرها بطيئة جدا مقارنة بنوع وطبيعة العلاقات الاجتماعية الموجودة في المدن المتحضرة .

ان العلاقة الاجتماعية Social Relationship هي ذلك الاسلوب الذي يتعامل به الافراد ويتصرفون حيال بعضهم بعض . وبمعنى

آخر . هي تلك الارتباطات والالتزامات الاجتماعية التي تشد الافراد الى بعضهم ، والتي بدورها تحدد نوعية التصرف والتعامل الاجتماعي . فالعلاقة الاجتماعية بين الزوج وزوجته على سبيل المثال في مجتمع ما تعني الطريقة التي يتعامل بها الزوج حيال زوجته والعكس بناء على الرابطة الاجتماعية Social Bond الموجودة بينهما ، وبما يتشئ والنظم والاعراف الموجودة في ذلك المجتمع ، وعلى هذا المستوى لا بد من التأكيد على عاملين رئيسيين فيما يتعلق وطبيعة أية علاقة اجتماعية :

أولا : لكي توجد العلاقة الاجتماعية وتستمر لا بد من وجود مجموعة من الوحدات الاجتماعية ليتم تبادل العلاقات الاجتماعية وتتحدد نوعيتها وعادة ما يتم ذلك بطريق العامل الاجتماعي Social Factor .

ثانيا : لا بد من وجود أشياء أو موضوعات معينة ، كتوزيع الثروة ، والحاجة الى الاحترام والالتزام الاجتماعي ، والهدف المشترك ، التي تحدد بدورها نوعية العلاقة الاجتماعية ، والتي كثيرا ما يعبر عنها بطريق التمييز بين مكانة الفرد الاجتماعية كأب وكزوج وبالتالي تتعدد أدواره الاجتماعية وتختلف (٤) .

ولكن بالرغم من أن جميع المكانات الاجتماعية لها ادوار اجتماعية ، إلا أنه ليس بالضرورة أن يستدل على مكانة الفرد الاجتماعية بطريق أفعاله وأعماله . فبعض المكانات الاجتماعية كما يسيها بعض علماء

---

(٤) لقد تطرق الى هذا الجانب بشيء من التفصيل تالكت بارسونز في كتابه « النسق الاجتماعي » عندما تناول مفهوم الدور والمكانة الاجتماعية .

T. Parsons, The Social System , London , 1952 ; PP. 18 — 19

الاجتماع مكتسبة أو معزوة Ascriptive ، والبعض الآخر يأتي بطريق مساعي الفرد في المجتمع ، أي تتكون مكاتته بطريق ما حققه بالفعل بواسطة مساعبه التي تتفق ومسيرة المجتمع . ويعتبر هذا النوع من المكانة الاجتماعية ذات صلاحية مقبولة أكثر من النوع الاول ( المكتسبة ) ، لأنها مؤقتة وتزول بزوال الثروة التي ورثها الفرد بطريق أبويه أو أجداده ، أو سلطة تحكيمية قد تنتهي وتزول بقيام سلطة أخرى مناهضة لها . أما النوع الثاني من المكانة الاجتماعية عادة ما يحدث تدريجيا بعكس النوع الاول والذي يحدث فجائيا في كثير من الاحيان .

وهناك نوع ثالث من المكانات الاجتماعية وهو ما يسمى بالمكانة الاجتماعية الوظيفية . فالأب له مكانة وظيفية حيال أبنائه ، وكذلك الاخوة تجاه بعضهم بعض ، ومهما اختلفت وتنوعت تصرفات الآباء حيال الابناء فان مكاتتهم الوظيفية ثابتة لا تتغير . وهذا النوع من المكانة الاجتماعية ( الوظيفي ) هي الذي يهتم المشتغلين بعلم الانسان الاجتماعي بالدرجة الاولى عند دراستهم لمفهوم العلاقة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات . في كل مجتمع من المجتمعات سواء كانت نامية أو متطورة تكنولوجيا يوجد ما يعرف بعلاقة الاقارب Kin Relations إلا أن نوعية هذه العلاقة تختلف من مجتمع لآخر ، وذلك لاختلاف البيئة والثقافة .

وقد أصبح مؤكدا لدينا بطريق ما سلف ذكره أن العلاقة الاجتماعية لها مضمونا أكثر من ذلك الذي يشير الى أفعال الافراد وتصرفاتهم تجاه بعضهم بعض . فالفرد في المجتمع أو المدارس له لا يمكنه التدليل على مكانة الفرد الاجتماعية بطريق ما يلاحظه ، حيث ان المكانة الاجتماعية ليست شيئا ماديا ملموسا بقدر ما هي شيء معنوي . وقد يتراءى للبعض

أن هناك أشياء مادية تسهم في مكانة الفرد الاجتماعية وتحدد نوعيتها ، حيث انه ليس بالضرورة أن تكون الأشياء أو الحاجات المادية التي يمتلكها الفرد رمزا أو مدلولاً لمكانته الاجتماعية Social Status . فقد لا يكون للفرد الثري مكانة اجتماعية في المجتمع . ان المكانة الاجتماعية للفرد هي تعامل وأخذ وعطاء وإفادة ، وهي أيضا أن يسخر الفرد كل ممتلكاته سواء كانت المادية ( الثروة ) أو المعنوية ( الثقافة ) لصالح وخدمة بقية أفراد المجتمع أو على الأقل لبعض منهم .

ان المكانة الاجتماعية من وجهة نظر علم الانسان الاجتماعي لا تتحقق للفرد إلا إذا اعترف بها بقية أفراد المجتمع أو على الأقل المجموعة التي تتعامل معها . فمثلا المكانة الاجتماعية لعضو هيئة تدريس في جامعة ما لا تتحقق بطريق حصوله على درجة علمية عالية ما لم ينعكس مستوى الدرجة العلمية التي يحملها على طلبته وذلك من خلال التفاعل والتعامل العلمي والعلمي مستعينا بعطائه الفكري . فاذا اعترف له جمهور مجتمعه الصغير ( الجامعة ) والمجتمع الذي يعيش فيه يمكننا أن نقول بأن شيئا ما قد تحقق لعضو هيئة التدريس هذا ، وهذا الشيء يمكن أن ننسبه المكانة الاجتماعية . ولطبيب مثلا - ولا أحد يستطيع أحد أن ينكر أنه يحمل مؤهلات تؤهله لمزاولة مهنته - ألا أن هذه المؤهلات لا تسبغ عليه مكانة اجتماعية بقدر الاعتراف الذي يضمنه من خلال مزاولة عملياته الجراحية الناجحة على جمهور مرضاه . فالمؤهل أو الدرجة العلمية التي يحصلها الطبيب لا تزيد عن كونها وسيلة لتقديم الطبيب لجمهور مرضاه . وبعد عملية التقديم هذه التي يصحبها اجراء العمليات الجراحية الناجحة والاكتشافات العلمية كالعقاقير الطبية المفيدة ، هي التي تؤهله للحصول على مكانة اجتماعية معينة ، والتي يعترف بها جمهور مرضاه والمختصين

الذين يتعامل معهم (٥) .

ان العلاقات الاجتماعية لا يسكن بأي حال من الاحوال التدليل عليها دون تحديد التوقعات والمعطيات وما يصحبها من قيم اجتماعية سالحة ومفيدة . ان مفكري علم الانسان الاجتماعي مثلهم في ذلك مفكري علم الاجتماع يهتسون بتصرفات الافراد ومعاملاتهم في الحياة حيا ل بعضهم بعض وما ينتج عن ذلك من قيم اجتماعية تعتبر الى حد كبير نوعا من التنظيم للعلاقات الاجتماعية للاجيال القادمة . فالآراء المتعلقة بنوع وطبيعة العلاقات الاجتماعية يسكن اعتبارها مجرد توقعات أو نوع من الاعتراف بالالتزام المجتمعي ، وبسعى آخر اعتراف لنوع المكانة الاجتماعية لفرد ما أو مجتمع كان قد حقق واقعا أو هدفا اجتماعيا لصالح جميع أفرادها دون خروج أو شذوذ مجموعة من الافراد عن هذا الواقع أو الهدف الاجتماعي . ومن هذا المنطلق يسكننا أن نميز بين نوعين من التفكير الاجتماعي : الاول هو وجود نوع من الافكار تتعلق بما يجب فعله وتطبيقه عسليا ، والكيفية التي يتم بها تقبل النسق الاجتماعي Social System وطبيعة البيئة . والثاني تلك المعتقدات والقيم التي ترتبط بما يقوم به الافراد من أعمال وتصرفات في حياتهم اليومية . وأحيانا قد لا يدرك أفراد المجتمع هذين النوعين من التمييز بين طبيعة هذه الافكار والقيم والتي قد تتجسد ضمنا في علاقاتهم الاجتماعية ومعاملاتهم في الحياة .

إلا أن مفكري علم الانسان الاجتماعي المهتمون بدراسة العلاقات

(٥) لقد تطرق تالكت بارسونز الى هذا النوع من الاعتراف بالمكانة الاجتماعية عن طريق الاخذ والعطاء في كتابه : مقالات في النظرية الاجتماعية الصادر سنة ١٩٤٩ م .

T. Parsons, Essays in Sociological theory , 1949 : Chapter 3 .

الاجتماعية يتعاملون معها على مستويين : الاول مستوى التوقعات في المعاملات اليومية وما يحدث عنها من تصرفات قد تتنافى مع قيم وايدولوجية المجتمع . والثاني موقف أفراد المجتمع من هذه التصرفات . ويتضمن المستوى الاخير عاملين هما :

١ - موقف الافراد من طبيعة الاشياء وكيفية حدوثها .

٢ - ما ينبغي أن تكون عليه طبيعة الاشياء (٦) .

إن أغلب مفكري علم الانسان الاجتماعي الذين قاموا بدراسات ميدانية لمجتمعات متعددة كثيرا ما نجدهم يعطون وزنا لهذه المستويات الثلاثة التي تتعلق بفهوم العلاقة الاجتماعية ، إلا أنه نجدهم في بعض الاحيان يركزون أو يؤكدون مستوى دون الآخر ، وكثيرا ما يقصرون أو يعجزون عن التمييز بين هذه المستويات أو العوامل التي سبق الاشارة إليها . وضرورة التمييز بطبيعة الحال حتمية نظرا لتباين ثقافات المجتمعات مستعنيين بطرق منهجية مختلفة . فاذا أخذنا المستوى الاول على سبيل المثال وليكن « ما وجب حدوثه » فالفكرة ليست بالامر الهين كما يتراءى لكثير من المهتمين بهذا النوع من المستوى والمتعلق بالفكر الاجتماعي . فلا يوجد حتى الآن سواء بالنسبة لعلم الانسان الاجتماعي أو أي علم من العلوم الانسانية الاخرى أن قيم بدراسة وقائع أو حقائق ثابتة دون تفسيرها وتحريفها واسناد هذا التفسير والتحريف الى طبيعة الظروف المحيطة بهذه الوقائع سواء كانت بيئية أو اجتماعية ، وبمعنى آخر اثر الايكولوجية البشرية Human Ecology في وجود الحقائق والوقائع

---

(٦) المقصود بالشيء هنا ، ما يحدد طبيعة العلاقة الاجتماعية بين فرد وآخر أو مجموعة وأخرى ، وقد يكون هذا الشيء التزام اجتماعي ، أو تقسيم ثروة معينة بين مجموعة من الافراد نتاج عملهم المشترك .

الاجتماعية • فمثلا تعدد الزوجات في مجتمع من المجتمعات قد يفسره البعض أو يرجعه الى نوعية التركيبة الاجتماعية للمجتمع • فالدارس لمجتمع رعوي أو زراعي قد يرجع ذلك الى احتياجات الاسرة الرعوية أو الزراعية لكثرة الايدي العاملة • والدارس لمجتمع انتقالي Transitional قد يرجع ذلك الى ارتفاع مستوى دخل الفرد أو افتقاره الى الوعي الاجتماعي وانخفاض المستوى التعليمي أو انعدامه معتمدا في تفسيراته على ملاحظاته وعلى أقوال الافراد المدروسين • وبفهوم تفسيري أكثر فان كل المعرفة بنا في ذلك معرفة ما يقوله الافراد وما يقومون به من أفعال ذات بنية اجتماعية مكونة من الاستنتاج Inference والملاحظة Observation وذات مدلول اجتماعي يطلق عليه الوقائع أو الحقائق Facts • والفكرة الاساسية التي يجب على مفكري علم الانسان الاجتماعي أخذها في الاعتبار عند دراسة مفهوم العلاقات الاجتماعية ألا بتفاضوا على أنهم يتعاملون مع مستويات مختلفة من العلاقات الاجتماعية حتى بين أفراد المجتمع الواحد ، وأن يراعوا أن التوقعات أو الاستنتاجات التي يضعونها قد تتغير بين فترة زمنية وأخرى وذلك نتيجة لتغير الافراد وتقبلهم لما يحدث من جديد كل يوم ، وهذا بدوره يؤثر في طبيعة العلاقات الاجتماعية حتى بين أفراد الاسرة الواحدة الذين تربطهم صلة الدم . Blood Connection

ذكرت سابقا أن ما يحدث من وقائع بالرغم من وضوحها والتدليل عليها يعتبر في بعض الاحيان شيئا مبلورا من قبل الملاحظ معتمدا على بعض المفاهيم التحليلية ، وكثيرا ما يحاول أن يجد لنفسه طريقة يختلف بها عن بقية أفراد المجتمع في تفسير وتحليل بعض الوقائع أو على الاقل ما يحدث في الحياة اليومية ، وقد يكون أحيانا على درجة من الصواب وذلك استنادا الى بعض الآراء والنظريات التي يعتمد عليها أثناء عملية التفسير والتحليل للوقائع المدروسة • وهذا التعارض بين أفكار الدارسين

المتخصصين ، وبين عامة افراد المجتمع بدأ يظهر جليا وذلك نتيجة لاجراء الدراسات الميدانية المكثفة التي أوجدت الاختلافات المتعددة بين أفراد المجتمع في تقبل الوقائع وفي تفسيرها وتحليلها ، كما تناولها مفكرو علم الانسان الاجتماعي وعبروا عنها بطرق مختلفة أيضا . وبالتالي نجد المفكر الأمريكي روبرت ريدفيلد R. Redfield يطور فكرة أو مفهوم ثقافة العامة Folk Culcture والمفكر الفرنسي كلود ليفي سترأوس C. Levi Strauss يميزان بين النموذج الاحصائي والآلي (٧) .

فقد كان لاستعمال ليفي سترأوس للمفهوم الاحصائي مدلولاً هاما حيث ذكر أن « ما يحدث بالفعل » معرضا لمعالجة كمية Quantitative أو احصائية بطريقة تختلف عن معالجة بعض المفاهيم الاخرى مثل القيم والمعتقدات التي تعتمد الى حد كبير على البيانات النوعية Qualitative .

ان ما يجب مراعاته والاهتمام به هو محاولة الجمع بين ما يعتبر كيا ونوعيا فيما يتعلق بسلوكيات الافراد وتصرفاتهم . حيث إن الاتجاه السائد الآن لدى مفكري العلوم الاجتماعية المعاصرين هو الاعتماد على الجوانب الكمية واهمال الكيفية في دراسة الوقائع والظواهر الاجتماعية . وتجدر الاشارة هنا الى أنه توجد أشياء كامنه تتعلق بتصرفات الافراد ، وهناك أيضا أشياء خاصة بالقيم والمعتقدات غير واضحة وغير صريحة ، على الباحث الاجتماعي محاولة كشفها واخراجها الى حيز الوجود حيث أنه لا يمكن الاعتماد على الوقائع الظاهرة واهمال الاشياء الكامنة في شرح وتفسير التصرف الاجتماعي . اننا لا نكر أهمية البيانات الاحصائية

---

R. Redfield , The Folk Society . In The American Journal (٧)  
of Sociology , 1951 : No. 52 PP. 293 — 308

C. Levi — Strauss, Social Structure . In Anthropology To day ,  
Chicago , 1953 : PP. 33 — 53 .

في دراسة بعض المشكلات الاجتماعية ، ولكن توجد مشكلات أخرى تتمتع بنفس الأهمية مثل تبدل العلاقة الاجتماعية بين الابن وأبيه وبقية أقاربه ، حيث تغيرت من درجة الانغلاق والتحفظ والالتزام الى درجة الانفتاح وعدم اللامبالاة • وقد يترأى لبعض المتخصصين في مختلف العلوم الاجتماعية بأن مثل هذه المشكلة تتأثر وتتغير وفقا لوجود متغيرات أخرى كالتعليم والاستقلالية وتقلص الأسرة الممتدة •

هناك أشياء وتصرفات اجتماعية لا يمكن حصرها كليا والاعتماد عليها في وصف أو تحديد نوعية العلاقة الاجتماعية السائدة بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين مجموعة من الافراد ، بل يجب على الباحث الاجتماعي أن يركز على الجوانب النوعية بقدر اهتمامه بالجوانب الكمية في شرح وتفسير التصرف الاجتماعي • وجدير بالذكر أن البيانات الاحصائية قد لا تؤدي وظيفتها على أكمل وجه ما لم يلم الباحث الاجتماعي بالمفاهيم الاحصائية قبل أن يحدد دراسته وفروضه وفق النسق الاجتماعي لجمهور البحث ، حتى يتسنى له تطبيق البيانات الاحصائية على مجال بحثه • إن ما يؤخذ اليوم على بعض الباحثين الاجتماعيين هو تعاملهم مع البيانات الاحصائية الجاهزة التي يحصلون عليها من بعض المؤسسات والدوائر الرسمية وغيرها ثم يقومون بعملية التحليل لهذه البيانات الاحصائية دون الاهتمام بالجوانب الاجتماعية المتعلقة بالبيانات الاحصائية<sup>(٨)</sup> • فلا يمكن بأي حال من الاحوال أن يقدم الباحث نتائج دراسته ما لم يتعامل ويتفاعل مع جمهور البحث الخاضع للدراسة ، كأن يدون الأنشطة الاجتماعية التي يقومون بها ويلاحظ طرق التعامل

(٨) لمزيد من الامام بهذا الموضوع يرجى الرجوع الى كتاب :

Seitiz, C., And others , Research Methods In Social Relation , 1959  
PP. 317 — 323 .

والتفاعل بين الافراد في مواقف ومناسبات اجتماعية • فالتأكيد على البيانات الاحصائية فيما يتعلق بقضايا مثل الزواج وغلاء المهور لا تعطي أي مدلول اجتماعي إلا إذا فهم الباحث المقصود من هذه القضايا ومعانيها ومدلولاتها الاجتماعية في الاطار الثقافي للسجتم ، حيث إن المدلولات الاجتماعية لموضوعات قد تبدو بسيطة مثل قضايا الطلاق وغلاء المهور ، تختلف من منطقة لاخرى ، حتى بين أفراد المجتمع الواحد ، كما تختلف من مجتمع لآخر •

إن مهمة مفكر علم الانسان الاجتماعي لا تنحصر فقط في تسجيل وملاحظة التصرف الاجتماعي لافراد المجتمع وما ينتج عنه من أحداث ومواقف اجتماعية بقدر ما هي معايشة للاحداث والمواقف الاجتماعية • وما تجدر الاشارة اليه أنه بالرغم من أن للقيم أهمية بالغة للتدليل على نوع وطبيعة العلاقات الاجتماعية فإن الباحث الاجتماعي يهتم بالمرء الاول بهذه القيم قبل دراستها وتحديد المكونات والعناصر التي تجسد القيم الاجتماعية وصلتها بطبيعة العلاقات الاجتماعية • فلا يمكن بطبيعة الحال مثلا أن تتصور نوع المعتقدات التي يعتنقها مجتمع ما قبل دراسة ومعرفة هذه المعتقدات ونشأتها والاسس التي قامت عليها • ففي الواقع أن أغلب المشتغلين بعلم الانسان الاجتماعي الذين قاموا بأبحاث وقدموا كتابات عديدة تخص الاديان والمعتقدات البدائية لم يتناولوا في أبحاثهم هذه وظيفة الجوانب الدينية والمعتقدات ومعانيها الاجتماعية وأثرها في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع<sup>(٩)</sup> • فعلى سبيل المثال لا الحصر كتب المفكر ديرل فورد D. Forde في مقدمته لمجموعة من المقالات لعدد

---

S. Gannous , The Social Structure of Al - Abiyar Township. (٩)  
Unpublished Ph. D Thesis , Manchester University , Manchester  
1977 : Chapter 6. PP. 261 — 263 .

من مفكري علم الانسان الاجتماعي عن عديد من المجتمعات ، كانت أغلب هذه لمقالات والبحوث تدور في حلقة مفرغة ، حيث كان اهتمامهم منصبا عن أثر البيئة الطبيعية في تجسيد المعتقدات الدينية ، غاضين الطرف عن الوظائف الاجتماعية للمعتقدات الدينية وركزوا جل اهتمامهم عن المكونات الطبيعية لهذه المعتقدات بدلا من الاهتمام بالافراد الذين اعتنقوا هذه المعتقدات والظروف التي دفعتهم الى ذلك (١٠) . وقد تناول اينانز بريتشارد Evans - Pritchard في مقدمة كتابه : Nuer Religion

المعتقدات الدينية لقبائل النوير بجنوب السودان حيث كانت آراؤه صورة ضيق الاصل لمن كتبوا في هذا المجال من قبله ، على أساس دراسة المعتقدات والاديان للشعوب التي اعتبروها بدائية آنذاك ، وليس على اعتبار العلاقة القائمة بين الفرد في تلك المجتمعات والاديان والمعتقدات التي يعتنقونها (١١) وبالرغم من وجود بعض التصورات الواردة في هذا الكتاب عن الوظيفة أو العلاقة بين الفرد والمعتقدات التي يزاولها ، إلا أن هذه التصورات لم ترد الا عرضا في مجمل كتابه المشار إليه .

من المآخذ التي تؤخذ على مثل هؤلاء المفكرين — بالرغم من اعتبارهم روادا ومؤسسين لعلم الانسان الاجتماعي — هو دراستهم لهذه المعتقدات باعتبارها مفاهيم أو جوانب في حد ذاتها ، وليست تنظيما للعلاقات الاجتماعية . فبالرغم من أن الفرد في المجتمع قادر على تنظيم وتكييف نفسه مع أفراد مجتمعه — إذا كان سويا — وقادر أيضا على إيجاد نظم تسير ورغباته ، إلا أنه كثيرا ما يخرج عن طبيعة وجوهر الدين الذي يعتنقه .

(١٠) D. Forde, ( Ed. ) African Worlds , London, 1954 : PP. 1 — 3  
(١١) E. Evans — Pritchard , Nuer Religion , Oxford , 1956 :  
PP. 125 — 127 .

ذكرت سلفا أن مهمة علم الانسان الاجتماعي تنحصر في دراسة العلاقات الاجتماعية المنسوبة ، وأنها - أي العلاقات الاجتماعية - تعبير تجريدي يندرج تحت التصرف الاجتماعي للأفراد ، ويشمل هذا التعبير التجريدي وقائع السلوك المظهري - أي الجوانب الملموسة في الحياة اليومية ، والجوانب التي تتعلق بالأفكار والقيم والأخلاق والالتزام . وبالرغم من أن هذه الجوانب الأخيرة تعتبر جزءا لا يتجزأ من السلوك الاجتماعي ، إلا أنها غير ملموسة - أي كامنة لا تظهر للعين المجردة إلا في صورة قيم وأفكار مثلى قد لا تنطبق مع وقائع الحياة الاجتماعية ، وبهذا فلا تعتبر ذات فائدة اجتماعية لأفراد المجتمع . أما إذا انسجبت الجوانب المتعلقة بالقيم والأخلاق مع وقائع السلوك المظهري فيمكننا القول بأن نوعا من الايديولوجية الاجتماعية قد تحققت للمجتمع . وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال إلا بقبول أغلب فئات المجتمع لهذا النوع من السلوك الاجتماعي حتى تتكون الايديولوجية السليمة . وبمعنى آخر فإن النظم الاجتماعية هي مزج من الاعمال ( الوقائع ) والأفكار ( المثل ) . فالجانب الاول له نتائج ملموسة وظاهرة ، والجانب الثاني له معاني كامنة . وهنا تنحصر مهمة مفكر علم الانسان الاجتماعي في التعامل مع كلا الجانبين اللذين بطريقها يستطيع أن يعرف ويحلل النظم والانسان الاجتماعية الموجودة في المجتمع فنظام القرابة مثلا Kinship System يشمل في مضمونه نوعا من المواقف والاتجاهات والالتزامات كاحترام ، والسلطة ، والحماية ، ويقوم بدور التنسيق الاجتماعي للعلاقات الاجتماعية بين أفراد العشيرة أو القبيلة ، بحيث إذا خرج أي فرد من الافراد عن النسق القبلي يحق لأفراد العشيرة أو القبيلة انزال العقوبة عليه ماديا ومعنويا .

من الامور الهامة التي يجب على المتخصص الاجتماعي مراعاتها عند

قيامه بأي دراسة ميدانية في أي مجال من المجالات أو لاي نظام من الانظمة ، أن يلم بالحقائق والوقائع المراد دراستها قبل القيام بعملية التحليل . وبالرغم من أن الوصف والتحليل متلازمان لاي دراسة ميدانية إلا أنهما قد يقودان الباحث إلى مغالطات كثيرة وخاصة في مجال العلوم الاجتماعية . وعليه - أي الباحث - أن يحدد الطريقة التي سيتبعها في تحليل بياناته ، وتحديد نوع الدراسة وصفية كانت أو تحليلية أو كليهما معا . فالدراسة الوصفية عادة ما تكون شاملة لنظام من الانظمة الاجتماعية في اطار عام ، بينما الدراسة التحليلية هي طريقة أو منهج يتخذه الباحث للتعامل مع الوقائع والحقائق الاجتماعية ، وتعتبران أكثر تحديدا وعقلانية من الدراسة الوصفية . إلا أن الباحث قد لا يجد مفرا من تطبيق المدخل الوصفي على المجتمع المبحوث وخاصة عندما يفتقر إلى الدراسات والمعلومات التي تخص المجتمع المدروس . وبالرغم من ذلك فإن الدراسات الوصفية لا تخلو في حد ذاتها من عملية التحليل ، إلا أنها عادة ما تكون محدودة . وبإمكان الباحث تطبيق النظرية التي تتلاءم مع طبيعة ونوع الدراسة حتى وإن كانت وصفية Discriptive . فاستخدام النظرية يحدد للباحث نوع الوقائع والحقائق التي يؤكد عليها من خلال دراسته الوصفية لمجتمع البحث ، وأيضا تجعله يلتزم طرق معينة في ربط الوقائع والاحداث بعضها ببعض (١٢) .

والجدير بالملاحظة هنا ألا يركز الباحث على عملية التعميم التي وصل إليها من خلال دراسته لاي نظام من الانظمة السائدة في المجتمع ، وإنما الأهم من ذلك تحديد مجال وموضوع الدراسة والنظرية أو المدخل المراد تطبيقه . ومن الضرورة بسكان أن يتعد الباحث بقدر الامكان عن

---

Selitz, C., and others, Research Methods in Social Relations. (١٢)  
London, 1959 : PP. 480 — 491 .

العمومية والوصفية ، حيث ان المجال الذي يحدده الباحث للدراسة والبحث عادة ما يكون غير مألوف - جديد - وهذا يعني أن حكم الباحث ورأيه في هذه الموضوعات يعتبر مشتقا ضمنا من ثقافة مجتمعه ، وبالتالي فقد تفوقه نتائج البحث الى المغالطة وتشكيك الآخرين في نتائج هذه الدراسة . وما يدعم نتائج البحث الاعتماد على بعض المداخل النظرية الواضحة والصريحة وخاصة أثناء عملية تحليل البيانات بالإضافة الى وجود التوافق والتطابق بين نوع الاسئلة التي يقوم الباحث الاثروبولوجي بتقديمها والاجوبة التي يقوم بتحليلها فيما بعد ، وان تتجنب التعارض بين نوع الاسئلة وطبيعة المواقف الفجائية .

تعددت الطرق المنهجية واختلفت في تحليل البيانات الميدانية ، كما تعددت المداخل النظرية وتطبيقاتها في مجال علم الانسان الاجتماعي . ويرجع هذا الاختلاف الى طبيعة المجتمعات البشرية ، فمنها المجتمعات المتخلفة ، ومنها النامية أو الانتقالية ، ومنها المتقدمة صناعيا . الا أن الطابع الذي تميز به تحليل البيانات الميدانية هو طابع المغالطة ، ومرد ذلك الى التباين الثقافي الموجود بين الباحث وبين مجتمع البحث وعدم المامه بثقافة المجتمع ولغته ، ويرجع ذلك أيضا الى العمومية وعدم تحديد مجال الدراسة الميدانية . فالباحث الميداني هدفه الاساسي دراسة المجتمع الذي حدد للدراسة من جميع الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية ، وقلما نجد في الدراسات الميدانية التي أجريت جوانب محددة الدراسة ، بل ما نلاحظه في كثير من الدراسات والمؤلفات هو شمولية الدراسة لشتى الانظمة السائدة في المجتمع في فترة زمنية وجيزة جدا . فبالرغم من تحديد عناوين المقالات والمؤلفات التي جاءت نتيجة لدراسات ميدانية كثيرة ، الا أن الدارس لمثل هذه المؤلفات يجد بين دفتها تعدد المجالات والموضوعات . وبالرغم من تعدد فروع العلم وتنوعها ، الا أنه ما زلنا نلاحظ استمرارية

التركيز على دراسة الكل الوظيفي للانظمة سواء كانت الاجتماعية . أو الاقتصادية . أو السياسية بدلا من التركيز على الجانب الاجتماعي . كما نلاحظ أيضا أن هناك تعديا من بعض الفروع مثل علم الانسان الاقتصادي Economic Anthropology الذي نجده يهتم في كثير من الاحيان بدراسة الانظمة الاجتماعية والسياسية والدينية ، في حين أن هذه المجالات هي مجال علم الانسان الاجتماعي ، وعلم الانسان السياسي ، وعلم الانسان الديني .

اننا لا ننكر ارتباط الانظمة بعضها ببعض لتكون ما يسمى بالبناء أو التركيب Structure كما لا يمكن أن ننكر ارتباط الفروع بعضها ببعض لتكون ما يسمى بالعلم ، ولكن ليس بالدرجة التي أصبحت عليها اليوم . فعسيلة التعدي لمجالات الفروع الأخرى سوف لن تؤدي إلى بناء وتطوير علم الانسان الاجتماعي بقدر ما تقوم به من هدم وتشكيك في كثير من فروع هذا العلم . ومن المآخذ التي تؤخذ على بعض هذه الفروع هو دورانها في حلقة مفرغة ، شأنها في ذلك شأن الدارسين والمفسرين لبعض الأديان الساقوية والأحداث النبوية ، التي لم تكن إلا امتدادا لبعضها بعض وتأثرا ببعضها بعض . ولا يمكن أن يدان علم الانسان الاجتماعي وحده بهذه التهم الموجهة إليه ، وإنما يشاركه في ذلك علم الاجتماع الديني ، والسياسي ، والاقتصادي ، وكثير من فروع العلوم الاجتماعية الأخرى (١٢) . لقد أشار أحد مفكري علم الانسان الاجتماعي إلى أن وظيفة

---

(١٢) لقد ساهمت المدرسة الأمريكية الاجتماعية في ذلك أكبر مساهمة في تعدد هذه الفروع بالرغم من كونها تتفق في كثير من المجالات . إلا أن البعض يعتبر هذه المساهمة تطورا للعلوم الاجتماعية ، في حين أنني أرى أن هذه المساهمة ما هي إلا وسيلة لاكتساب الرزق . فما يدرس الآن في كثير من الجامعات الأمريكية بصورة خاصة ، وبعض الجامعات الأوروبية بصورة ←

التحليل هي اضافة معاني جديدة الى ما هو موجود ، وبمعنى آخر تفسير وتحليل الوقائع الاجتماعية والسلوك الاجتماعي بما يتلاءم وظروف البيئة والمجتمع ، ومحاولة اظهار هذه الوقائع الى شيء شبه ملموس كما هو الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية التي تسير وفق قوانين علمية بدرجة من الثبات والتبول على المستويين العلمي والاجتماعي . فتفسير شيء ما - سواء كان هذا الشيء واقعة أو ظاهرة اجتماعية - معناه جعله في اطار محدد المجالات مبتعدا كل البعد عن تعدي بقية المجالات الاخرى التي تخص شتى الفروع الاجتماعية الاخرى سواء بالنسبة لعلم الانسان الاجتماعي أو علم الاجتماع (١٤) .

تعدد الطرق المنهجية بالنسبة لعلم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع التي تتم بربط الاشياء بعضها ببعض بدلا من تجزئتها ودراستها كأشياء قائمة بذاتها . فاذا درسنا مثلا نظام الزواج في مجتمع من المجتمعات فاننا بالضرورة سنتعرض الى مفهوم المهر *Bridewealth* وقيمته ، والطريقة التي يتم بها اختيار الزوج أو الزوجة والعادات والتقاليد المتبعة بالنسبة لهذا النظام ومدلولاتها الاجتماعية . وما أود أن اكد عليه هنا أن جميع التفسيرات النظرية لظاهرة أو واقعة اجتماعية تعتبر في حد ذاتها - قياسيا

→ عامة - وقد حذت جامعات الدول العربية ودول العالم الثالث حذوها - لا يتعدى فصول دراسية لفرع من الفروع ، أصر المتخصصون على أن تكون فروعا قائمة بذاتها ، حاولوا بشيء من الذكاء على حساب العلم أن يحوروا لها نظريات متعددة اعتبروها جديدة من خلق فكر إنساني مبدع ، اكتسبوا بها القاب علمية غير جديرين بها على الاطلاق . ولهذا فقد شاهدت العلوم الاجتماعية ركودا هائلا في العقدين الاخيرين من هذا القرن . وعليه فانني اشك في أن تتكرر بعض الاعمال الاكاديمية مستقبلا كأعمال ابن خلدون . وماكس فيبر ، وأوجست كونت ، وهربرت سبنسر ، وبار سونز ، وخاصة في مجال النظريات الاجتماعية .

S. F. Nadel, The Foundations of Social Anthropology, (١٤)

London, 1951 : Chapter 3 .

على الأقل - ادراج هذا الشيء أو الواقعة الاجتماعية في اطار نظري محدد . ومن المتفق عليه فإن عملية التفسير تشمل ذلك الاطار النظري الذي يحدده الباحث وفق نظريات ومداخل اجتماعية متعارف عليها ، بعدها تأتي عملية ادراج الخاص تحت اطار العام حتى يسكننا القول بأن الظاهرة أو الواقعة الاجتماعية قد فسرت وحلت الى عناصرها في اطار كلي شامل بحيث لا تخرج هذه التفسيرات والشروح عن ثقافة ونظم المجتمع الذي قام الباحث بدراسته ، فاذا خرج الباحث عن هذا الاطار ( أي الاطار الكلي لثقافة المجتمع ) فيجب أن يكون خروجه هذا من أجل المقارنة فقط Comparative وذلك لغرض التمييز بين ثقافة مجتمع وآخر ، أو بين نظام من الانظمة المدروسة حتى تتحدد عملية التماثل أو التباين من عدمها .

من الامور التي يجب أن يأخذها باحث علم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع في الاعتبار ، عند القيام بأي دراسة مقارنة ، هو مقارنة موضوع الدراسة بالانظمة المتشابهة والتي لها علاقة بموضوع الدراسة سواء كانت ميدانية أو مكتبية بدلا من مقارنتها بالانظمة التي تختلف اختلافا جوهريا عن موضوع الدراسة الذي حدده الباحث ، والتي قد تختلف الى حد كبير بدلولاتها وتائجها الاجتماعية . فلا يمكن لاي باحث تجاهل الدراسات المقارنة في ميدان البحوث الاجتماعية والتي بطريقها يستطيع الباحث تحديد اطار موحد لطبيعة الانظمة المتشابهة والكشف عن العوامل والمسببات التي أدت الى مثل هذا التشابه - سواء كانت مادية ، معنوية ، أو بيئية - ليس بسبب تشابهها صدفة أو عرضا ، ولكن لاثبات نوعياتها والتي تعتبر بالمفهوم الاجتماعي ذات أهمية بالغة قد تكون كامنة في النظام الاجتماعي والتي قد لا يستنتجها الباحث الا بطريق المقارنة . ان أشياء كثيرة قد يستفيد منها الباحث الاجتماعي عند دراسته لمفهوم القرابة Kinship ومدلولاته الاجتماعية في منطقة بنغازي مثلا ومقارنته بمفهوم القرابة ومدلولاته

الاجتماعية في منطقة خارج منطقة بنغازي ، وقد تكون الاستفادة أكثر عند مقارنته باحدى دول الوطن العربي بدلا من مقارنته بنظام القراية الموجود في احدى دول أوروبا أو الامريكيتين حيث ان الاختلاف في هذه الحالة يعتبر جوهريا ، سواء من حيث تركيب النظام ذاته أو مدلولاته الاجتماعية وتطبيقاتها ، وهذا بطبيعة الحال له اعتبارات جديرة بالاهتمام بالنسبة لمفكري علم الانسان الاجتماعي . فاذا قام الباحث بدراسة بعض الانظمة لمجتمعات تختلف ثقافتها كلية ، فان الشرط الاساسي للقيام بمثل هذه الدراسات هو إلمامه وفهمه لثقافات هذه المجتمعات في أطرها البيئية والاجتماعية ، وعليه أن يكون حذرا أثناء مقارنته لانظمة مختلفة اختلافا جوهريا . وهذا لا يعني أنه يتعذر عليه القيام بذلك ، أو ان مثل هذه الدراسة ستكون عقيمة النتائج أو مغلوطة ، فكما ذكرت أن الشرط الاساسي للقيام بمثل هذه الدراسات هو توفر الاستعداد التام من حيث الإلمام بثقافات المجتمعات الخاضعة للدراسة والمقارنة ، وفي مقدمتها لغات تلك المجتمعات . فالإلمام باللغة يعتبر أساسا مدخلا لفهم الانظمة الاجتماعية، وبالتالي تكون نتائج الدراسات الميدانية ذات فعالية وفائدة لا ينكرها أي متخصص اجتماعي .

ان الامر الذي دعاني الى التأكيد عن الإلمام بلغة وثقافة المجتمع الخاضع للدراسة هو تلك الدراسات العقيمة التي قام بها بعض المفكرين من دول أوروبا والامريكيتين لبعض مجتمعات العالم الثالث . والمطلع على مثل هذه الدراسات **المغلوطة** يشعر بالفارق الكبير للنظم أو الابنية الاجتماعية السائدة التي يعاصرها المتخصص الملم بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه وتلك التي درست ووصفت عن طريق بعض الدارسين الاجتماعيين الذين أمضوا فترات زمنية وجيزة لا تؤهلهم حتى للإلمام بالحروف الابجدية للغة المجتمع، وفي الوقت نفسه يتجرؤون على حساب العلم والانظمة التي افترضوا أنهم درسوها دراسة علمية موضوعية - والتي لا تتعدى في واقع الامر الملاحظة.

العابرة للكتابة في موضوعات ومشاكل اجتماعية هي في حقيقة الامر بعيدة كل البعد وبريئة من المغالطات والتلفيق التي ألصقها بها أمثال هؤلاء . فهناك موضوعات ومشاكل تصعب دراستها والكتابة فيها حتى من قبل المتخصصين الذين ترعرعوا في ظل هذه الانظمة واكتسبوا ثقافة المجتمع الذي عاصروه أو يعاصرونه . والغريب في الامر أن تجد مثل هذه الدراسات والمؤلفات سوقا رائجة ومؤسسات علمية فاتحة أبوابها لتدريس ما جاء في هذه الكتب الملفقة بدلا من تقييمها وتصحيحها (١٥) .

لقد ساد الجدل والاختلاف بين مفكري علم الانسان الاجتماعي وعلم الاجتماع في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عما اذا كان هناك نوع من القوانين التي تسيّر وتنظم الانظمة والعلاقات الاجتماعية السائدة في مختلف المجتمعات البشرية ، وهل بالامكان التوصل الى اكتشاف قوانين تسيّر وفقها المجتمعات البشرية من خلال الانظمة السائدة فيها . وهناك بعض المفكرين المشتغلين بعلم الانسان الاجتماعي من رأى أن هذا العلم يسكن مقارنته ببعض العلوم الطبيعية مثل علم الاحياء وعلم الكيمياء (١٦) ، وبالتالي يمكن التوصل الى اكتشاف بعض القوانين الاجتماعية التي يجوز استعمالها في تنظيم العلاقات الاجتماعية . ومن المفكرين من نظر الى أن هذا العلم ( علم الانسان الاجتماعي ) على أنه علم مجرد وخاصة أولئك المهتمين بالدراسات التاريخية والفلسفة الاجتماعية -

---

(١٥) ليس المقصود بذلك التعصب لجزئية الثقافة . فجميع الدارسين والمتخصصين والمثقفين يؤكدون على عمومية الثقافة ، فهي ليست مقتصرة على مجموعة دون الأخرى أو مجتمع دون الآخر ، ولكن عمومية الثقافة لا تعني أن نأخذ بجميع ما يكتسب على حساب العلم والمعرفة .

C. Levi — Strauss. The Elementary Structure of Kinship (١٦)

1969 : PP. 4 — 7 .

حيث عارضوا فكرة مماثلة هذا العلم بالعلوم الطبيعية ، وبالتالي أنكروا وجود أو اكتشاف قوانين اجتماعية تقوم بتنظيم الانظمة الاجتماعية وتحديد نوع العلاقات الاجتماعية السائدة في شتى المجتمعات الانسانية ، ولم تقتصر معارضتهم لاكتشاف القوانين الاجتماعية على علم الانسان الاجتماعي فقط بل شملوا جميع العلوم الاجتماعية وفي مقدمتها علم الاجتماع (١٧) .

لقد رأى أصحاب الرأي المعارض لفكرة اكتشاف القوانين الاجتماعية وتطبيقها في دراسة الانظمة والعلاقات الاجتماعية أنه لا يمكن بأي حال من الاحوال ايجاد وتطبيق أي نوع من القوانين وخاصة فيما يتعلق بدراسة العلاقات الاجتماعية لكونها مجردة وأنه يتعذر تطبيق أي قانون معين على نوع التصرف الاجتماعي Social Behaviour لان هذا يحد من حرية التصرف الارادي للفرد في المجتمع ، وأكدوا بقولهم : ان التصرف الاجتماعي في كثير من الاحيان والمواقف يحدث تلقائيا متخطيا كل الحدود والمواضع الاجتماعية والاعراف حتى بين أفراد المجموعة التي تربطها صلات الدم والقرابة ، كما هو الحال عند تقسيم الملكية Property واختيار الزوج أو الزوجة خارج حدود القربى . . . فكثيرا ما كان نظام الزواج محصورا في نطاق أفراد العائلة الممتدة Extended Family أو العشيرة Clan في المجتمعات البسيطة وذلك نظرا لارتباط مثل هذه الجماعات Blood — Money الدموية بالتزامات اجتماعية مشتركة مثل دفع الدية

(١٧) ان هذا الاختلاف بين الرايين ما هو الا مجرد اختلاف جدلي وخاصة بين المهتمين بدراسة الشعائر والمعتقدات الدينية في المجتمعات البسيطة . وبالرغم من تناولهم لفكرة اكتشاف القوانين وتطبيقها من عدمه ، إلا ان كلا الرايين لم يوضحا المقصود بمفهوم القانون الاجتماعي من حيث تعريفه ووظيفته ، وتميزت كتاباتهم بطابع فلسفي جدلي بعيدة كل البعد عن مجال علم الانسان الاجتماعي الذي يعتمد الى حد كبير على الدراسات الميدانية المقارنة لما لها من اثر في تفسير الانظمة والعلاقات الاجتماعية .

والمساهمة في تغطية تكاليف الزواج ، والمشاركة الجماعية في القيام بجميع الأنشطة الاقتصادية Economic - Activities مثل حث الأرض وزرعها . وحتى المحصول وتوزيعه حتى ظهر بما يسمى بجماعة الجسم الواحد Corporation القائمة على النسق القرابي Kinship System والتركيب القبلي Tribal Structure . وبالرغم من وجود هذا النوع من الجماعات في بعض المجتمعات التي يلعب فيها شيخ القبيلة دورا قياديا مسلطا هدفه في ذلك احراز السلطة وتوريثها لسلالته وقرابته من بعده ، تكوين الثروات على حساب بقية أفراد المجموعة الواحدة ، وقد يساعده في ذلك نظام الحكم السائد في المجتمع والذي كثيرا ما يكون مبنيا على التركيب القبلي ذي المصلحة الفردية ، بأن جعل لشيخ القبيلة مكانة اجتماعية Social Status حتى وان لم تكن مقبولة من بعض أفراد القبيلة . الا أن نظام الحكم ونوع التركيبة القبلية السائدة تعتبر تصديقا لمكانة التي يستع بها شيخ القبيلة الامر الذي يؤدي في كثير من الاحيان الى تردد بعض الافراد الراضين للتركيبة القبلية من عضوية القبيلة وحرمانهم من جميع حقوقهم الاجتماعية ومستلكاتهم الاقتصادية ، وعادة ما يحدث هذا في المنازعات القبلية التي تأتي نتيجة استغلال الاراضي القبلية ومواردها من قبل أفراد مصلحين دون غيرهم (١٨) .

ان المشكلة التي تواجه المشتغلين بالعلوم الاجتماعية هي مدى التمكن من محاولة شرح وتفسير التصرف الاجتماعي ضمن قوانين ولوائح اجتماعية في حدود الاطار الثقافي للمجتمع . الا أن هذه الفكرة التي شغلت أذهان المفكرين الاجتماعيين لفترة زمنية ليست بالوجيزة تعتبر السى حد كبير فكرة خاطئة لم تبين على نظريات أو قواعد منهجية سليمة ، بل يرجع

(١٨) ان خير دليل على هذا . النظام القبلي الذي كان سائدا في ليبيا قبل عام ١٩٦٩ .

ظهورها الى سوء فهم طبيعة المعرفة . فالكل يتفق على أن التصرف الارادي ناتج عن حقيقة التجربة ، فالفرد في المجتمع له حرية التصرف والاختيار ، وقد يتحدى في كثير من الاحيان والمواقف تلك القوانين والانظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي أوجدتها بيروقراطية النظم المفتعلة ، ويقوم بأفعال وردود أفعال قد يعتبرها البعض خروجاً عن بيروقراطية النظم السائدة في المجتمع . وبسبب ذلك أن يوفق الفرد في تحديه لبيروقراطية الانظمة - التي لا تعتبر أو لا تزيد عن كونها اديولوجيات ساعد على وجودها مجموعة من الافراد من خلال ممارستها لحكم أو سلطة بيروقراطية - تتفسخ بعد ذلك بيروقراطية الانظمة وتتجسد حرية التصرف الارادي والاختيار (١٩) .

ان جميع الانظمة التي ابتدعت في الدول النامية والصناعية بحجة تنظيم العلاقات الاجتماعية والانتاجية هي نظم مفتعلة ذات طابع مصلحي ، ومهما وجدت من أنظمة بيروقراطية فجميعها مبنية على فروض وتكهنات لا علاقة لها بالفكر الاجتماعي ، وانما هي عبارة عن فروض حدسية مفروضة بحكم وجود السلطة الحاكمة أو طبقة الحكم . وبالرغم من ذلك فان الفرد لا ينكر وجود بعض الانظمة التي تسير تصرفاته الاجتماعية وعلاقاته مع غيره من الافراد شريطة خلوها من البيروقراطية . ويشترط في هذا النوع من الانظمة لكي تقبل ألا تتعارض مع طبيعة العلاقات الاجتماعية أو بمعنى آخر وضع حد اجتماعي لها . ولكي تكون هذه الانظمة ذات

---

(١٩) لا يتأتى هذا التغيير الا بطريق مجموعة من الافراد آمنت بأن البيروقراطية على جميع مستوياتها هي قوة الدفع الوحيدة التي تحد من حرية التصرف الارادي . ولكي يتم تحطيم بيروقراطية الانظمة ، فلا بد أن تتسم هذه المجموعة من الافراد بالطابع القيادي بادىء الامر ، ومتى تيقنت المجموعة القيادية من زوال بيروقراطية الانظمة ، يجب أن تنحصر وظيفتها بعد ذلك في دور الاشراف والتوجيه .

دلالة اجتماعية مقبولة . يجب أن يساهم جميع أفراد المجتمع في وضعها والاتفاق عليها ، حينئذ تنتفي علية الرفض وعدم القبول .

تناول أغلب مفكري العلوم الاجتماعية في دراساتهم وأبحاثهم بأن تصرفات الافراد في المجتمع تعتبر منسوبة وذلك نتيجة بيروقراطية النظم السائدة . وكان من الاجدر أن يهتموا بدراسة تصرفات الافراد الارادية ونوعية العلاقات الاجتماعية بدلا من تفسير وتحليل التصرف الارادي - إن وجد - من خلال الانظمة السائدة ، بل تركوا جانبا سلوكية الفرد وعلاقاته الاجتماعية بغيره ، واهتموا بدراسة الانظمة نفسها التي تحدد سلوكية الفرد في المجتمع ، مثل اهتمامهم بسلطة شيخ القبيلة ، وتلك اللوائح التي يفرضها على أفراد قبيلته ، ومفهوم القبيلة ، ومفهوم الملكية ، ومفهوم القرابة وأثر ذلك على العلاقات الاجتماعية ، وأدخلوا هذه المفاهيم الرسية في تحديد العلاقات الاجتماعية ونظم الزواج والطلاق ، والمهور . واستغلال موارد القبيلة . . . . . لدرجة أنه في بعض المجتمعات البسيطة والنامية على حد سواء نجد أن التصرف الارادي للفرد في المجتمع مكبل بسبل هذه المفاهيم .

لقد كان ولا يزال للنظم القبلية التأثير الكبير على التصرفات الارادية للافراد ، وخير دليل على ذلك هو عدم تصرف الفرد في ملكيته بحجة أنها قبلية ، وأن القبيلة وحدة اجتماعية Social Unit لا تتجزأ . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل توجد لوائح تنظيمية قبلية تتعلق بتحديد الزواج داخل القبيلة نفسها يسنها شيخ القبيلة ومعاونيه مستندين على وجود رابطة الدم — Boold — Tie سواء كانت هذه الرابطة قريبة أو بعيدة Putative ، مدعين بأن هذه الوحدة الاجتماعية ( القبيلة ) هي كيان اجتماعي Social Entity لا يسكن المساس به ولا مكان اجتماعيا لاي دخیل عليه . والحقيقة هي عكس ذلك تماما . فالغرض من عدم

اعطاء الفرد حريته الارادية في حصوله على حاجاته الضرورية واحتياجاته لشريكة حياته هو تجسيد الملكية القبلية والحفاظ على ثروة القبيلة داخلها بقصد الانتفاع منها من قبل افراد ذوي سلطة قبلية شأنهم في ذلك شأن الإقطاعيين في الدول الرأسالية . والخطر من ذلك هو تجسيد القبيلة بعصبيتها وعنصريتها . وخير دليل على ذلك التركيب القبلي الذي كان سائدا في ليبيا قبل عام ١٩٦٩ . حيث كانت بعض القبائل مسيطرة سيطرة كاملة ومستحوذة على السلطة بحجة أنها أكثر عددا وثروة . وانها اتقى القبائل وأصفاها أصلا وفصلا بالرغم من أنهم ينحدرون من اصل واحد .

فالقوانين الطبيعية التي يستخدمها بعض المشتغلين بالعلوم الاجتماعية في تفسير الظواهر الاجتماعية Social Phenomena والعلاقات الاجتماعية هي في الواقع عبارة عن فروض تفسيرية لا دخل لها في بعض القضايا التي تتعلق بالتصرف الارادي والاخلاقي . فالخطأ الشائع الذي وقع فيه كثير من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية هو محاولة تغييرهم للمفاهيم المجردة الى وقائع أو أشياء ، حتى تلك التي لا تظهر للعين المجردة . وقد حاول كثير من المتخصصين تفسير الوقائع أو الأشياء ، او العلاقات الاجتماعية التي تخص الجنس البشري في أي مجتمع من المجتمعات الانسانية في اطار قواعد ونظم أطلقوا عليها مفاهيم متسائلة كالنسق الاجتماعي Social System ، والنظام الاجتماعي Social Order والقانون الاجتماعي Social Institution ، دون محاولة تفسير هذه المفاهيم أو حتى ربطها بما يجري في الحياة اليومية الاجتماعية منها الاقتصادية والسياسية . ففي ميادين الدراسات الانسانية الاجتماعية ، زاد الامر تفاقمنا وخاصة فيما يخص مفاهيم الانساق والنظم الاجتماعية حيث نجد كثيرا من المشتغلين بهذه المفاهيم لم يحاولوا تحديدها والهدف من اعتبارها قوانين تنظم سير العلاقات الاجتماعية وتحدد من حرية التصرف

الأرادي ، بل اعتبروها قوانين ولوائح تنظيمية ، علمية لا جدال فيها ، ولم يأخذوا في الاعتبار أن الفرد في المجتمع عرضة لمسايرة كل جديد يطرأ عليه لكن تحدث عليه التكيف الاجتماعي Social Adaptation وانه ( الفرد ) في كل يوم يحدث تغيرات اجتماعية في طبيعة علاقاته مع غيره من الافراد ، فكما هو متعارف عليه أن الفرد يمر بدوره في الحياة Life Cycle ، وأن طبيعة أي مجتمع بما فيه البيئة الجغرافية تتطور وتنمو وتتغير ، وعلى الفرد مسايرتها لكي يعيش ويتعايش معها .

من بين المفكرين الذين أهملوا حركة النمو والتغير رادكلف - براون R. Brown ، الذي أكد في كثير من كتاباته ومناظراته أن هذه المفاهيم مرتبطة بالمجتمعات الراكدة Static ، وأن هناك نوعاً من الثبوتية في طبيعة الحياة الاجتماعية تسيروها مجموعة من الانساق والنظم الاجتماعية ، واعتبره الكثيرون من المتأثرين بأرائه أنه أول من حدد وجعل لعلم الانسان الاجتماعي قوانين علمية (٢٠) . الا أن مجهودات رادكلف - براون وأتباعه لم تتعد مجرد التعميمات والآراء التجريدية التي توصلوا اليها بطريق الملاحظة أطلقوا عليها النظرية الوظيفية - التي لم تحاول تفسير أي شيء - بل عجزوا عن تفسير النظرية الوظيفية نفسها . فالقانون العلمي ليس هو مجرد عرض لافكار تجريدية وإنما هو تلك التركيبة النظرية التي تقوم بتفسير الانظمة الموجودة في المجتمع ، وليس هو استدلال أو استنتاج لمجموعة من المبادئ والافكار الموجودة ، وليس استقرار لملاحظات تجريدية وإنما هو - أي القانون العلمي - تقرير نظرية علمية أو مدخل علمي جديد ، وما تعنيه النظرية أو المدخل النظري من تفسيرات

---

(٢٠) يرجع هذا التأثير بفكرة الركود والثبوتية الى الظروف البيئية الاجتماعية التي أوجدها الاستعمار في المجتمعات البسيطة التي عاصرها رادكلف - براون وأتباعه آنذاك وقاموا بدراستها .

وشرح علمية لا يعني تعميمها ، حيث إن عملية التعميم  
Generalization تحتاج إلى مواقف وظروف اجتماعية محددة بزمان  
ومكان . فالعلاقة الاجتماعية المنموتة ، والتحفزية القائمة بين الزوج وأم  
زوجته مثلا في مجتمع ما لا يمكن تعميمها على كل المجتمعات ، حيث إنها  
تختلف باختلاف الانظمة وطبيعة المجتمع . ففي المجتمعات الصناعية نجد  
أن هذه العلاقة غير منموتة بالدرجة التي عليها في الوطن العربي ودول  
العالم الثالث ، حيث إنها في الاولى علاقة مفتوحة ، بينما في الثانية تعتبر  
مغلقة إلى حد كبير . والدارس لهذين النوعين من العلاقات الاجتماعية  
لا يسكنه بأي حال من الاحوال تطبيق مدخل نظري واحد ، لان ما ينطبق  
على نوعية العلاقة الاجتماعية الاولى لا ينطبق على الثانية ، وعليه تحديد  
مداخل نظرية تتعامل مع كلا النوعين من العلاقات الاجتماعية المنموتة  
وغير المنموتة حتى يمكنه التوصل الى درجة المقارنة السليمة بين كلا  
النوعين من العلاقات الاجتماعية ، لانه يتعامل مع مواقف اجتماعية  
مختلفة ، ونظام قرابي مختلف ، وأنظمة اجتماعية متغايرة .

المراجع والمصادر :

- Evans — Pritchard , E. E. 1956 . **Nuer Religion** Clarendon . Press  
Oxford .
- Forde, C. D , ( Ed. ) 1956. **African Worlds** Oxford University , Press  
for the International Journal of African Institute .  
London .
- Gannous , S. M. 1977 **The Social Structure of Al — Abiyar  
Township** . Unpublished Ph. D Thesis . Man-  
chester University , Manchester .  
Discriptive
- Levi — Strauss , C. 1953 . Social Structure A. L. Kroeber ( Ed: )  
**In Anthropology To Day** . University of  
Chicago Press, Chicago .
- Levi — Strauss , C. 1969 **The Elementary Structure of Kinship**  
Alden Press , Oxford .
- Nadel , S. F. , 1951 **The Foundations of Social Anthropology** ,  
The Free Pree, Glencoe .
- Parsons , T. 1949 **Essays in Sociological Theory** . Tavistock  
Publication , Glencoe .
- Parsons , T. 1952 **The Social System** . Tavistock Publications ,  
Glencoe .
- Peters , E. L. 1975 **Aspects of Affinity in a Lebanese Maronite  
Village** . Mancheseter University , Manchester .
- Redfield , R. . 1951 **The Folk Society** . The American Journal of  
Sociology . No. 52 .
- Selltiz C., and others, 1959 . **Research Methods in Social Relations**.  
Henry Holt , New York .